"Pragmatisme", trad. franç., P. 109. )

من هذا نرى أن المنهج العملى ( على حد تعبير چيمز نفسه ) من شأنه أن يضع حدًا لتلك المناقشات الميتافيزيقية التى لا سبيل إلى الفصل فيها بأية طريقة أخرى . فهل تقول مثلا بأن العالم واحد أم كثير ؟ وهل نقول بأنه محكوم بالقضاء والقدر أم أنه قائم على الحرية ؟ وهل نقول بأنه مادى أم روحى ؟ كل هذه المسائل الميتافيزيقية هى فى نظر چيمز مما يصعب الفصل فيه عن طريق النظر العقلى وحده ، فلنرجع إذن إلى التجربة لكى نتحقق من النتائج العملية التى تترتب على القول بهذا المذهب أو ذاك . وأما حيث لا توجد فوارق عملية بين المذهب ونقيضه ، فإن معنى هذا أنهما متساويان ( كما سبق لنا القول ) وبالتالى فإنه ليس ثمة معنى لإثارة أى نزاع حول صحة الواحد منهما دون الآخر ! وعلى ذلك ، فإن المنهج العملى يريد أن يفصل فى المناقشات الميتافيزيقية العقيمة بالرجوع إلى نتائجها العملية وآثارها المباشرة وغير المباشرة . ("Pragmatism" P. 45) والحق فى نظره لا بد أن يكون ملائما ، مفيدا ، مرضيًا ، متلائمًا مع غيره من الحقائق . فليست « المنفعة الفردية » هى محك صدق الفكرة ، بل لا بد للفكرة الحقيقية من أن تتلاءم مع غيرها من الأفكار العامة التى ثبتت صحتها عمليًا . وعلى الرغم من أن چيمز يهيب بإرادة الاعتقاد ( كما سنرى بعد حين ) فإنه لا يدع الاعتقاد رهنًا بإرادة تعسفية تقول للشىء كن فيكون ، بل هو يرى أن كل اعتقاد لا ينسجم مع غيره من الاعتقادات لا بد أن يكون اعتقادًا خاطئًا . ولكننا سنرى مع ذلك أن چيمز سيجعل للاعتقاد دائرة خاصة فيها تصبح الحقيقة قابلة للتغير باكتشافنا لوقائع جديدة ، كما تصبح أيضًا مسألة قابلة للزيادة أو النقص A matter of degree . وهنا سيأخذ المذهب العملى صورة « فلسفة إرادية » . تأبى أن تجعل من العقل الحكم المطلق الذى يفصل فى صحة الحقائق ، لكى تهيب بالإرادة والعواطف مسلمة بما لها من حق مشروع ، حتى فى مجال الاعتقاد نفسه .

**إرادة الاعتقاد عند وليم چيمز :**

يذهب وليم چيمز إلى أن هناك أفكارًا ليس فى استطاعتنا أن نحكم عليها بأنها صحيحة أو كاذبة ، لأن المعرفة العلمية الصحيحة مستحيلة تمامًا فى دائرتها .

فماذا ينبغى أن يكون موقفنا بالنسبة إلى مثل هذه الأفكار ؟ هل ينبغى علينا أن نتوقف عن الحكم عليها ، أم هل يحسن بنا أن نفترض عدة فروض من أجل تفسيرها ؟ الواقع أننا لا نستطيع أن نحيا أو أن نفكر ، دون قدر من الإيمان أو الاعتقاد ، وليس الاعتقاد إلا مجرد فرض ناجح Working hypothesis . فلماذا لا نلتجئ إلى « إرادة الاعتقاد » حيث يعسر الوصول إلى بداهة عقلية يقينية ؟ ألا يحدث أحيانا أن يكون « الاعتقاد » نفسه عاملا فعالا من عوامل « تحقق » ما نؤمن به أو ما نعتقده ؟ إن اعتقادك بأمانة شخص قد يكون هو الكفيل ببث روح الأمانة فى نفسه ، كما أن ثقتك به قد تجعل منه شخصًا جديرا بالثقة حقا — فلماذا لا نقول إن هناك حالات فيها يخلق « الإيمان » Faith نفسه وسائل تحققه ، بحيث يصح القول بأن الفكرة تولد الواقعة ، كما أن الرغبة تولد الفكرة ؟

«Thought becomes father to the fact, as the wish was father to the thought»:

إن البعض ليظن أن كل ما لدينا من معتقدات يقوم على بداهة موضوعية قوامها المنطق والنظر المجرد Pure insight ، ولكن الواقع أن للإرادة دخلا كبيرا فى معظم ما ندين به من معتقدات . فنحن لسنا موجودات عقلية محضة تتولد كل معتقداتها عن اقتناع عقلى وبداهة منطقية ، بل إن عامل « الاختيار » Option هو الذى يحدد اعتقادنا Belief إلى حد كبير . ومعنى هذا أن طبيعتنا غير العقلية تؤثر بشكل واضح فى معظم آرائنا ومعتقداتنا ، بل إننا حتى إذا اعتقدنا أن هناك حقا ، وأن عقلنا ميسر لإدراك هذا الحق ، فإن هذا الاعتقاد نفسه إن هو إلا تعبير عن رغبة وجدانية تدخل فيها بعض عناصر إرادية وأخرى اجتماعية . وحينما نجد أنفسنا بإزاء ضرورة عملية تقتضى منا أن نختار ، فلا نسارع إلى الاختيار ، بل نؤثر أن نعلق الحكم ، فإننا هنا لا نمتنع تمامًا عن الاختيار ، بل نحن نختار بالفعل عدم الاختيار ، وبذلك نعبر عن اتجاه إرادى من نوع خاص . ومهما يكن من شىء ، فإننا لا نكف مطلقا عن امتحان معتقداتنا عن طريق التجربة نفسها ، بدليل أننا نختبر آراءنا فى مجال التطبيق العملى ، فنعدل منها أو نحتفظ بها أو نستبدل بها غيرها . ولا تقاس قيمة معتقداتنا بمعرفة الأصل الذى

صدرت عنه Terminus a quo ، بل بمعرفة الغاية التى أفضت إليها Terminus ad quem . فليس المهم أن نعرف من أين استقيت الفروض التى تأخذ بها ، بل المهم أن نعرف ما إذا كانت فروضًا ناجحة توصلك بالفعل إلى نتائج عملية مرضية . ( Cf. W. James : "The Will to believe", 1915, P. 1 – 31 )

إن ما يكون العالم فى كل لحظة من لحظاته هو فى نظر جيمز معتقداتنا نحن : فإن الطابع الذى يأخذه العالم يتوقف إلى حد كبير على إيماننا نحن ؛ بل ربما كان فى استطاعتنا أن نقول إن ما هو كائن يتوقف إلى حد غير قليل على ما ينبغى أن يكون . وهنا يوجه جيمز نظرنا إلى أن العالم ــ فى جانب كبير منه ــ ناقص ومرن Plastic ؛ وفى هذا الجانب بالذات مجال أوسع للفعل الإنسانى الذى لا بد له من أن يغير من مجرى الوقائع . والإيمان الفردى إنما يقوم فى عالم ناقص متكثر : إذ هنالك يمكن للاعتقاد أن يعمل عمله وأن يساهم بشكل فعال فى التغيير من صفحة هذا العالم . وماذا عسى أن تكون إرادة الاعتقاد إن لم تكن تعبيرًا عن قدرة الإرادة الإنسانية على الفصل فى الكثير من المسائل الأخلاقية والدينية بالرجوع إلى التجربة نفسها ، حيث يستحيل على العقل أن يقدم لنا من الأدلة النظرية ما يكفى للفصل فى تلك المسائل ؟

إن البعض ليؤثر الامتناع كلية عن البحث عن الحق ، خشية الوقوع فى الخطأ ، وأما الفيلسوف العملى فإنه يعرف أن البحث عن الحق مهمة خطيرة لا بد فيها من الجرأة والمخاطرة ، ولهذا فهو لا يريد تعليق الحكم ، بل يؤثر الوقوع فى الخطأ عن الامتناع كلية عن البحث . ومتى استطاع الإنسان أن يعثر على الحق مكفولا بشتى الضمانات ، حتى يتوقف عن الحكم بدعوى أنه ليس ثمة بداهة يقينية أو ليس ثمة ضمان لصحة معتقداتنا ؟ إن الحياة لا تحتمل أدنى تأخير ، فلماذا لا نعمل واضعين حياتنا نفسها بين أيدينا ، حتى ندع للتجربة نفسها أن تفصل فى معتقداتنا وآرائنا ومبادئ أفعالنا ؟ ... إن « الحقيقة » كما يراها دعاة البرجماتزم هى بمثابة مهمة أو مشروع Entreprise فهى تتطلب جهدًا فعالا ، لا مجرد انتظار سلبى فيه نتوقع ورود البداهة أو اليقين أو الاقتناع ! وليس فى استطاعة الجراح الذى لا يعرف ما إذا كانت العملية التى سيقوم بها كفيلة بإنقاذ